ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 06 العدد: 03(2021) ص 115-124

الإشعاع الأدبي بالجنوب المغربي:

(الطاهر بن محمد الإفراني أنموذجا)

Literary radiation in southern Morocco:

(Tahar El-Afrani as a Model

بن الدين بخولة*
المركز الجامعي افلو (الجزائر)
trezel@live.fr

علي بن البشير بلمسيل
(المغرب)
aliboulmsail@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
24 افريل 2021
تاريخ القبول:
24 ماي 2021

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الأسر العلمية الإفرانية.
- ✓ الإشعاع الأدبي
- ✓ الاسرة الطاهرية الافرانية

الملخص:

هدفت الدراسة إلى تبيان دور الأسر العلمية بالجنوب المغربي في خدمة الدين والعلم والأدب والتصوف والسياسة، نخص بالدراسة الأسرة الطاهرية التنكرتية الإفرانية التي برز اسمها في ساحة الأدب منذ القرن الرابع الهجري والتي مثلها الفقيه الأديب الطاهر بن محمد الإفراني بشعره وأدبه الرفيع والذي أسهم في تنشيط الحركة الأدبية بمنطقة إفران الأطلس الصغير حتى أصبحت منارة للعلم وقبلة لطالبي العلم من كل صوب وحدب. حظيت بمكانة لائقة من قبل الباحثين السوسيين كمؤرخ سوس المختار السوسي الذي وصفها بوادي الأدباء بالنظر لما خلفه الطاهر الإفراني وما ورثه لأبنائه وطلابه من شعر غزير .

وقد تم التركيز في هذه الدراسة على مظاهر الإشعاع الأدبي بإفران الأطلس الصغير، وذلك باستحضار أشعار الطاهر الإفراني ورصد مميزات شعره وخصائصه.

Article info

Received
24April 2021
Accepted
24 May 2021

Keywords:
- ✓ *Rural families*
- ✓ *the Tahar Ifrani family*
- ✓ *Sufi literary*

Abstract :

This study aims to investigate into the historical contribution of some families in southern Morocco in the field of intellectual and literary knowledge production in the domains of literature, Sufism, and local politics. The study revolves around the role of the Tahar al-Afrani family, originated from the village of Tankert in the region of Ifrane in the south of Morocco. Represented by the poet Taher bin Muhammad al-Afrani, the family had interested in studying and producing interesting works of Arab poetry and prose since the fourth century AH; such intellectual literary contribution had largely helped the emergence of the literary movement in Ifrane, the Atlas al-Saghir,
Therefore, the focus in this study is on the different manifestations of literary and intellectual knowledge production in Ifrane al-Atlas al-Saghir.

* المؤلف المرسل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

. مقدمة:

إن كثرة الأسر العلمية بالمغرب التي خدمت وما تزال تخدم الدين وتورثه لأبنائها لخير دليل على أن المغاربة متعلقين بحضارتهم الإسلامية وبالأدب وسائر العلوم، ولم تقف هذه البيوتات العلمية عند الأدب فقط بل تجاوزته إلى القضاء والتصوف والسياسة. ومن الأسر المشتهرة في مجال العلوم الأسر الفاسية والدلائية والكرسيفية والكتانية وغيرها، وقد خصت بإنتاجات كثيرة منها: **"بيوتات فاس الكبرى"** لابن الأحمر الغرناطي، و **"زهر الآس في بيوتات فاس"** لعبد الكبير بن هاشم الكتاني وغيرها. ولقد برزت أسر علمية بالجنوب المغربي منذ قرون خلت (القرن الرابع الهجري) اعتنت بالعلم والدين بالرغم من بعدها عن المراكز الحضرية. فلقد أحصى منها مؤرخ سوس محمد المختار السوسي (1898م – 1963م) حوالي مائتي أسرة، خلفت إرثا علميا عظيما في التدريس والآداب.

وتعتبر الأسرة الطاهرية الإفرانية من أشهر الأسر التي تداول فيها العلم والأدب والتصوف، ومن أهم مميزات إفران الأطلس الصغير تلك الخريطة المتنوعة من الأسر العلمية، والتي يرجع لها الفضل الكبير في الأدوار الطلائعية التي أدتها بالمنطقة، وجعلتها من المناطق الأدبية المميزة بسوس إسوة بمختلف المناطق العالمة بهذه الربوع من المغرب، وقد عرفت الحركة العلمية بإفران، تطورا وازدهارا كبيرين، خلال الفترة الممتدة بين 1280و1417 هجرية (علي، 2002، صفحة 15).

2.النتاج الأدبي للأسرة الطاهرية الإفرانية:

1.2 مظاهر إشعاع الأدب الإفراني:

اشتهرت حركة الأدب الإفراني وامتد شعاعها وإشعاعها بفعل عدة عوامل يمكن إجمالها في:

- الموقع الإستراتيجي لإفران الأطلس الصغير في ربوع الوطن.
- حضور الإفرانيين في مختلف المحافل السياسية الوطنية في المغرب وسوس.
- المكانة التي تحتلها الأسر العلمية بإفران الأطلس الصغير وصلاتها بمثيلاتها في ربوع الوطن.
- دور الزوايا في نشاط حركة التربية والتعليم من خلال الحضور التيجاني والدرقاوي وكذا تبادل الخبرات من خلال الرحلات والبعثات الطلابية.
- المشاركة في حركة التأليف والتقريظ والإبداع الشعري والنثري.
- ظهور طبقات من الشعراء الإفرانيين زانوا القطر السوسي بإبداعهم ومجاراتهم لأقرانهم في سوس وباقي ربوع الوطن.
- كثرة المرتادين إلى مواطنهم طلبا للعلم أو لأخذ الطريقة أو للإستجازة .

2.2 الطاهر الإفراني (1284هـ -1374هـ /1867م – 1955م):

أ.أصله ونسبه:

ينتسب الطاهر الإفراني، إلى الأسرة التمنارتية البكرية (سوس، صفحة 21)، والمشهورة في كل أنحاء سوس بالعلم والفقه والأدب الرصين، وهي أسرة شريفة ترفع نسبها إلى أبي بكر الصديق، تسمى بالتمنارتية، استقرت بمنطقة "أَمَانُوزْ" منذ فترة طويلة لتنتقل بعد ذلك إلى"تَمَنَارْت" في بداية القرن العاشر الهجري، والتي كانت لها فيها مكانة متميزة، حيث تبوأت الرئاسة لفترة من الزمن، بعد ذلك انتقلت هذه الأسرة إلى منطقة إفران الأطلس الصغير ببلدة " تَنْكَرْت " الإفرانية.

ب.ولادته ونشأته:

هو الطاهر بن محمد بن ابراهيم بن أحمد بن يحي بن محمد بن إبراهيم التامنارتي (المختار)من مواليد سنة 1284 هجرية بإفران، عاش يتيما منذ صغره، حيث توفي والده عن عمره لا يتجاوز عشر سنوات، وقد تكفل العلامة الحسين التبحنيفتي الدرقاوي بكفالته ورعايته.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تلقى تعليمه الأولي على يد والده بمدرسة تنكرت، حيث حفظ القران هناك، لينتقل بعدها إلى المدرسة الإلغية (المهدي) وفيها أخذ يبحث في المقررات والمناهج الدراسية المعتمدة بها. ومن هذه المدرسة صقلت وتكونت الشخصية الحذقة والعلمية للطاهر الإفراني ومنها أخذ مختلف العلوم من نحو وبيان ولغة وفقه وغيرها، مع براعته الكبيرة في الأدب. لكن رغم ما وصل إليه الطاهر الإفراني من تكوين علمي وأدبي متميز، فإن شخصيته التواقة للبحث المستمر، جعلته يغادر المدرسة التَّانْكْرِيَّة، بحثا عن المزيد من المعارف، فانتقل سنة 1309 هجرية، إلى المدرسة الجِيشْتِيمِيَّة (التعليم العتيق، 2020، الصفحات 133-134) للأخذ من علامتها أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان الجيشتيمي، لينتقل بعدها لزيارة مجموعة من مناطق المغرب كفاس، حيث حل بالقرويين ومكث بها ثلاثة(3 أشهر، واستطاع من خلالها الاحتكاك بعلماء فاس وأدبائها، خلال هذه المدة تعرف فيها على معارف جديدة وقارع أهل فاس بمساجلات شعرية، الشيء الذي مكنه من الاضطلاع على ما عند أهل فاس من علوم.

بعد المسيرة الطويلة التي قضاها، الطاهر الإفراني باحثا ومتنقلا بين المدارس العلمية المشهورة في سوس وخارجه عاد إلى بلدته الأصلية "تَنْكْرْت" بإفران الأطلس الصغير، ليستقر بمدرسة والده منذ سنة 1307 هجرية، ولازمها أكثر من عشرين سنة، لينخرط بذلك في سلك التدريس بها، وقد جاد طيلة تواجده على الطلبة الذين يتوافدون إليها من كل مكان، بمختلف العلوم خاصة الأدب الذي برع فيه بلا منازع له في المنطقة وسوس عموما.

وبعد هذه الفترة من مشارطته وتدريسه بمدرسة "تنكرت"، انتقل إلى المدرسة البُومْرْوَانِيَّة، حيث شارط فيها لمدة أربع سنوات، قبل أن ينتقل مرة أخرى وبشكل نهائي إلى مدرسة والده بتنكرت، التي استقر بها إلى أن توفي سنة 1374 هجرية.

ج. الطاهر الإفراني الأديب:

يعتبر الطاهر الإفراني من أهم العلماء المعروفين في سوس، بالأدب والشعر فهو أفضل نموذج (التعليم العتيق، 2020) يمثل إفران وسوس في هذا الميدان، وهذا راجع بالأساس إلى تكوينه الأدبي بالمدرسة الإلغية و إلى إضطلاعه على مؤلفات متنوعة ومختلفة خاصة في الأدب الأندلسي متل كتاب " نفح الطيب "، للمقري. وقد تتلمذ على يده الكثير من العلماء الأفذاذ أمثال محمد المختار السوسي ومولاي عبد الرحمان البوزكاري و ابنه سيدي محمد بن الطاهر (أمنون، 2002، صفحة 121 وما بعدها) وداود الرسموكي (اليزيد، 1992) وأدباء المدرسة الإلغية وآخرين. أما الحديث عن حجم إبداعه الأدبي فإن أهم خاصية تميزه هو غزارة وتنوعه فهو يتناول كثيرا من الميادين الأدبية المطروقة عند القدماء، كما أن له كثير منها فضل الإبداع والابتكار، ويقدر عدد الأبيات الشعرية التي نظمها الطاهر الإفراني بحوالي ستة آلاف بيت شعري لم يجمع شعره في ديوان بل بقي مخطوطا كما كتبه ابنه سيدي محمد بن الطاهر ويشتغل الدكتور اليزيد الراضي الزكراوي على ديوانه في جمعه ودراسته. ومن نماذج شعره قصيدة مشهورة عند السوسيين مطلعها:

بَرِحَ الْخَفَاءُ وَصَرَّحَ الْوَجْدُ وَبَدَا الَّذِي مَا خِلْتُهُ يَبْدُو

ولقد مثل بين يدي المغفور له الملك محمد الخامس، حيث أنشد في حضرته قصيدة تاريخية مهمة، وله في ميدان النثر إسهامات أخرى وذلك بتقريظه لكتب معاصرة لكبار علماء المغرب في عصره أمثال ابن زيدان وسكيرج والبلغيثي وآخرين. وكتب إليه البلغيثي من فاس سنة 1317 هجرية قائلا:

أَنَفْحَةُ الْمِسْكِ عَطَّرْتِ جَوَّ أَنْفَاسِي مِنْ إِفْرَانَةَ هَبَّتْ بِلُطْفٍ عَلَى فَاس

كما كتب عنه محمد المختار السوسي قائلا:

فَإِنَّمَا الطَّاهِرُ أُعْجُوبَة فِي الْعِلْمِ وَ الْآدَابِ وَالْمَجْدِ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وقال عنه المؤرخ ابن الحبيب: "شيخ التربية والتعليم وإمام التقدير والتفهيم (...) من أكابر العلماء والأدباء بتأليفه ومحرراته، قصائده الشعرية ملأت الآفاق وجاوزت الطباق (...)." (المختار، صفحة 94)

أما فيما يخص الحديث عن مكانته بين أجياله من المغاربة، "فقد اعتبره المؤرخ المكناسي ابن زيدان: من أبرع أهل جيله من المغاربة فيما حصله تحصيلا تاما" (إبراهيم، صفحة 212)

لقد ظل الطاهر الإفراني مكافحا في صفوف المجاهدين كذلك فنظم الشعر في الميدان السياسي أثناء الاحتلال لاستنهاض الهمم، فكان وفيا لقطب الجهاد أحمد الهيبة ولخلفه مربه ربه إلى أن داهم الاحتلال الجهة الجنوبية، وبعد أن أحكم قبضته على كل القبائل السوسية حوالي سنة 1353 هجرية، انقطع الطاهر الإفراني عن التدريس، والتزم الصمت وعزل الحياة منقطعا متفرغا لأسرته.

ومن الأبيات التي نظمها يستنهض أحد علماء سوس الأفذاذ للجهاد:

فَيَا بدرَ أُفقِ الدينِ يا ليثَ غابِهِ ... وَيا غَوْثَ ملهوف ويا خيرَ مُنْجِدِ

تَدَارَكْ ذَمَاءَ الدين واسمعْ صَرِيخَهُ ... وَشَمِّرْ إلى نَصْرِ الهدى وَتَجَلَّدِ

فقد أنشب الكفرُ المُداهِنُ نابَهُ ... وَمَدَّ إلى سَرْحِ الهُدى كفَّ مُفْسِدِ

وَكَادَ بأنواع المكايِدِ أَهلَهُ ... وَصَارَ يُنَادي: (خامري وتَلَبَّدِي)

أَسَرَّ احتسَاءً فِي ارْتِغَاءٍ وَمَا لَهُ ... سِوَى الدِّينِ مِنِ مَرْمًى يُرَامُ وَمَقْصَدِ

وَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى بِظُهُورِهِ ... وَإِنْ لَمْ يُدَاوَ الْعَرُّ بِالْكَيِّ يَزْدَدِ

حاول الاحتلال الفرنسي استمالته لكن دون جدوى، ولم يستجب لكل إغراءاتهم، و"قضى أواخر حياته يتردد بين أملاكه حيث يزاول شؤون أسرته الخاصة من حرث وحصاد وإلمامه بداره في "تنكرت" ويلقي بعض الدروس في المدرسة كلما حضر إلى داره كما كان يفعل في سنوات الكفاح إلى أن فاضت روحه ضحى يوم الأحد 29 رمضان من سنة 1374 هجرية" (المختار، صفحة 78).

د. فن المديح في شعر الطاهر الإفراني:

عندما يجتمع الشعراء المادحون في المساجد والأندية المخصصة للذكر تلقى قصائد في مدح خير البرية، فيمزجون بين المديح النبوي والمديح السلطاني، ولعل السبب في ذلك يعود بالأساس لكون السلطان ينتمي لآل البيت، ومدحه يعتبر تكملة للمديح النبوي، أو لتوافر بعض المميزات والخصال النبوية في شخصه مراعاة لتلك العلاقة، كما أن السلطان غالبا ما يحضر تلك المجالس ويستمع لتلك القصائد المدحية، فينال نصيبه منها فيشيدون بخصاله وأعماله. وهكذا فالطاهر الإفراني استطاب النفحات المحمدية فيقول:

فَمَدْحُ رَسُولِ الله رَاحِي وَرَاحَتِي ... فَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاهُ بِمُنْسِلِ

فَلَا جَاهَ إِلَّا جَاهُ أَحْمَدَ يَرْتَجِي ... لِكُلِّ سَعِيدٍ مِنْ غَنِيٍّ وَمُرَمَّلِ

تعتبر المواسم والأعياد الدينية من الأشياء التي تحرك مشاعر الشاعر الإفراني فيتفجر شعرا مستعرضا مجموعة من الرسائل الدينية والوطنية، وتظهر تجليات هذا النوع في قصائد مدحية كثيرة سأذكر بعض مطالعها اختصارا يقول: (المختار، المعسول، صفحة 187)

تَأَلَّقَ بَرْقٌ شَقَّ جَيْبَ الدُّجَا وَهْنَا ... فَشَاقَ لِعَهْد بِالْأَبَارِقِ فَالدَّهْنَا

وقال أيضا: (المختار، المعسول، صفحة 218)

أَنَفْحَ صَبَا رَوضِ الرُّبَا أَمْ شَذَا الْمِسْكِ ... أَمِ الْمَدْحُ فِي خَيْرِ الْوَرَى فَاحَ مِنْ صَكِّ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

هـ. ذكر فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم:

بلغ عدد القصائد التي نظمها الفقيه في محبة الرسول الأكرم نحو 29 قصيدة، وهي قصائد طوال تنم عن حبه وارتباطه الوثيق بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. ومن عادات الشيخ أيضا أنه يختم قصائده في كل الموضوعات بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن الدارس لشعره سيرى استخدامه المتكرر لمعجم الإلهيات وما يرتبط به من التقرب إلى الله عز وجل، وهذا المعجم يضم حقولا دلالية فرعية منها: حقل التوحيد، وحقل الفضائل والأخلاق وحقل النبوة والولاية. هذه الحقول تنسجم والمضامين الشعرية المتمثلة في الحب الإلهي والشوق إلى لقاء الله والتوسل وحب الطريقة الأحمدية والدعوة إلى التحلي بصفات الربانيين. وسنحاول أن نذكر بعضا من أشعاره التي تلخص ما تم ذكره:

يقول متوسلا إلى الله عز وجل:

يَا رَبِّ يَا رَحمنُ يَا مَن ظِلُّه لَا يَنْزَوِي عَن مُتَّهم أَوْ مُنجدِ

يَا أَكْرم الْكُرماءِ يَا مَنْ بَابُه عَن عَبْدِه مَهْمَا دَعَا لَمْ يُسَدِدِ

يَا مَالكَ الْمُلكِ الْعَظِيمِ وَمَنْ لَه مِننٌ تَرُوح عَلَى العُفَاة وَتَغْتَدي

يَا بَرُّ يَا ذَا الْفضْل يَا مَن جُودُه قَد عَمَّ كُلَّ مُقرب وَمُبعَد

وقال في مدح الرسول الأعظم:

نَبِيّ الْهُدَى مِنِّي أَتَمَّ صَلَاةٍ تَجُوبُ بِمَتْنِ الرِّيحِ كُلَّ فَلَاةِ

تُفَاوِحُ عُرْفَ الْمِسْكِ طِيبًا وَتَغْتَدِي لِقَبْرِكَ بِالْآصَالِ وَالْبُكُرَاتِ

إلى أن قال معتبرا الرسول صلى الله عليه وسلم روح الجود وذاته وبدونه جسم بدون روح :

عَلَى أَن رُوحَ الْجُودِ أَنْتَ وَذَاتَهُ بِدُونِكَ جِسْمٌ كَانَ دُون حَيَاةِ

وَأَنْت الَّذِي لَوْلَا نَدَاك لَمَا بَدَا بِحَالٍ وُجُودُ الْكَوْنِ فِي الْعَدَمَاتِ

وَلَا وَضُحَتْ سُبُلُ الْهُدَى لِمُيَمِّمٍ رَشَادًا وَلَا حَطَّتْ ذُنُوبُ عُصَاةِ

وقال متمنيا زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

دَعَاكَ الفَقِير (الطَّاهِرُ) بن محمد عَلى أَضْلُعٍ بالشَّوق مُتَّقِداتِ

لِتُدرِكَهُ مِنْك الْعِنايَةُ كَي يَرَى بِهَا آمِنًا مِن شِدَّةِ السَّكَرَاتِ

وَفِي الْقَبْرِ وَالْحَشْرِ الْفَظِيعِ وَكُلِّ مَا مُخَوِّف وَعِند الْبَعثِ بِالنَّفخَات

وَتُنْجِدَه بِالعَوْن كَيْ يَمْتَطي إِلى الْـ ـحِجازِ مَطي العَزْم قَبلَ وَفَاةِ

فَيَغْسِلَ مِنْ رِجْسِ الذُّنُوب فُؤَادَهُ بِزَمْزَمَ كَيْ يَصْفُو مِنَ الْكَدَرَاتِ

يعتبر الفقيه سيدي الطاهر الإفراني ذِكْر الحبيب ومراتعه مما يكشف خبايا النفوس من محبة الرسول فتنهمر الدموع في المجالس شوقا للرسول الأعظم. ولقد أنشد الشاعر قصيدة تحت عنوان (بَرِحَ الْخَفَاءُ) ارتجالا في مجلس واحد يضم عددا كبيرا من الحاضرين، وهي قصيدة

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لقيت قبولا منقطع النظير بحيث تقرأ إلى يومنا هذا في المناسبات الدينية كعيد المولد النبوي الشريف وتنشد في مجالس الأمداح مع البردة والهمزية وبانت سعاد، بل وضعت عليها شروح تقرب معانيها للقارئين، ويرجع سبب حب الناس لها إلى ما يلي:

- أنشدت ارتجالا في مجلس واحد.
- ذاع صيتها بين محبيه من معارفه وتلاميذه حتى فتحت القلوب.
- تفردها بالروحانيات والمديح وانتشائها من كأس المحبة.
- حديثه عن الحقيقة المحمدية كما يرتضيها العارفون من أهل التصوف من خلال ذكره لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم (هو الكريم، ذو الجود، سر الوجود ، بدر الدجى، غوث الرجاء، هو الرحمة التي من بها الرحمن على البرية.....
- الوحدة الموضوعية للقصيدة، فلم يتطرق فيه إلا إلى: منزلة ومكانة الرسول الكريم.

قال الطاهر الإفراني رحمه الله:

بَرِحَ الْخَفَاءُ وَصَرَّحَ الْوَجْدُ وَبَدَا الَّذِي مَا خِلْتُهُ يَبْدُو
ذُكِرَ الْحِمَى وَنَزِيلُهُ فَتَنَاثَرَتْ دُرَرُ الدُّمُوعِ وَأُضْرِمَ الْوَقْدُ
وَجَرَتْ صَبَا أَنْفَاسِهِمْ فَتَمَايَلَتْ أَهْلُ الْهَوَى فَكَأَنَّهُمْ خُلْدُ
وَالْمُسْتَهَامُ وَإِنْ أَبَانَ تَجَلُّدًا أَبَدًا يَمِنٌّ إِذَا جَرَى نَجْدُ
عَجَبًا لِقَلْبٍ لَا يَذُوبُ إِذَا شَدَا حَادِي الْحِمَى وَلَوْ أَنَّهُ صَلْدُ
وَإِذَا أَدَارَ الْمَادِحُونَ الْكَأْسَ مِنْ مَدْحِ النَّبِيِّ فَقَدْ بَدَا السَّعْدُ
فَمَدِيحُ خَيْرِ الْخَلْقِ إِنْ شَفَّ الظَّمَا جَوْفَ الْمَشُوقِ صَبَابَةً وِرْدُ
وَإِذَا تَنَفَّسَ فِي النَّدِيِّ نَسِيمُهُ هَبَّتْ بِمَا لَمْ يَحْكِهِ الْوَرْدُ
فَهُوَ الْحُلِيُّ لِأُذْنِ سَامِعِهِ وَفِي لَهَوَاتِهِ الْحَلْوَاءُ وَالشَّهْدُ
فَالذِّكْرُ قَدْ يُغْنِي عَنِ اللُّقْيَا إِذَا طَالَ النَّوَى وَتَقَادَمَ الْعَهْدُ
فَالْقَلْبُ رُبَّتَمَا تَعَلَّلَ بِالْمُنَى وَالطَّيْفُ إِنْ أَوْدَى بِهِ الْبُعْدُ
لَاسِيَّمَا وَالْمُصْطَفَى أَبَدًا لَهُ بِحُضُورِ مَجْلِسِ مَدْحِهِ وَعْدُ
أَتُرَى وَ حَاشَا جُودِهِ أَنْ يَنْثَنِي مُدَّاحُهُ وَسُؤَالُهُمْ رَدُّ
فَهُوَ الْكَرِيمُ وَجُودُهُ الْمَمْنُوحُ لَا يُخْطِي الْعُفَاةَ بِبَابِهِ رِفْدُ
وَهُوَ الَّذِي مِنْ جُودِهِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا فَلَيْسَ لِبَذْلِهِ حَدُّ
وَهُوَ الَّذِي عَمَّ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ مُذْ كَانَ غَيْثُ نَوَالِهِ الْعِدُّ
وَهُوَ الَّذِي مَنْ جَاءَهُ يَبْغِي النَّدَى مِنْهُ فَقَدْ أَوْرَى لَهُ الزَّنْدُ

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

سِرُّ الْوُجُودِ وَشَمْسُ أَفْلَاكِ الْهُدَى بَحْرُ النَّدَى وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ
كَهْفُ اللَّجَا بَدْرُ الدُّجَى غَوْثُ الرَّجَا مَنْ خَابَ مِنْهُ لِمَنْ رَجَا قَصْدُ
يَا خَيْرَ مَنْ أَسْدَى وَأَفْضَلَ مَنْ هَدَى وَأَجَلَّ مَنْ يُقْفَى بِهِ الرُّشْدُ
يَا رَحْمَةً مَنَّ الْإِلَهُ بِهَا عَلَى كُلِّ الْوَرَى فَالشُّكْرُ وَالْحَمْدُ
هَذَا مَقَامُ الْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّدَى مِنْ بَعْدِ أَنْ أَوْدَى بِهِ الْجَهْدُ
يَرْجُو الشَّفَاعَةَ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْأُ خْرَى إِذَا مَا ضَمَّهُ اللَّحْدُ
فَأَغِثْهُ يَا أَنْدَى الْوَرَى فَعَلَيْكَ قَدْ وَقَفَ الرَّجَاءُ بِهِ فَمَا يَعْدُو
فَهُوَ الْعُبَيْدُ وَأَنْتَ مَوْلَاهُ وَمَنْ يَرْجُوهُ إِلَّا السَّيِّدَ الْعَبْدُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَا حَنَّتْ إِلَى مَصْرَى شَذَاكَ النُّجْبُ وَالْجُرْدُ
وَعلَى صَحَابَتِكَ الْكِرَامِ وَكُلِّ مَنْ قَدْ شَفَّهُ لِلِقَائِكَ الْوَجْدُ

استعرض الشاعر الإفراني فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم، والإسلام دين يحث على مكارم الأخلاق لذلك نجد الشاعر يتوسل الأمل في المغفرة والحصول على الثواب، وإصلاح الظاهر والباطن، والشفاعة في يوم المعاد. هذا التوسل نابع من كون هذا المناط النبوي سببا لبلوغ المقصود وتحقيق المنى. ومن الأمثلة التي تبين توسله إلى الرسول الكريم وله:

وَإِنِّي يَا خَيرَ الْوَرَى مُتَوَسِّل إِلَيْك بِمَدْحِ طيب النَّفحَاتِ
تَكَلَّفته عَن عُجْمَة أَنْتَمي بِها لِخِدْمَة ذَاتِ الفَضْل مِنْك بِذَاتِي
فَمَدْحُك حِرْزٌ لَا يُضَامُ دَخِيلُه وَإِن بِهِ الصَّعبُ الشَّمُوس يُوَاتِي

و. موضوعاته الشعرية ومميزات شعره:

أ. الموضوعات:

تناول الفقيه سيدي الطاهر الإفراني جل الموضوعات والأغراض التي تناولها الشعراء القدماء في قصائدهم، ومن أبرز القضايا الفكرية التي طرقها ما يلي:

- الإخوانيات.
- الشعر الديني.
- شعر المناسبات.
- شعر الجهاد.

يعتبر الشاعر من الشعراء الفحول في سوس فهو شاعر المشرق والمغرب بلا منازع (المختار، صفحة 304) وبلبل الشعر الصداح، وصدى الأدب الذي لا يكاد يفرغ من من قصيدة حتى يفتتح أخرى (المختار، صفحة 377) ، اشتهر بالأدب حتى ليزعم من لا يعرفونه أنه لا يعرف إلا بالأدب (المختار، صفحة 83) تعاطى لنظم القريض منذ صغره مما جعل نتاجه الشعري وفيرا يفوق 6600 بيت شعري في نحو 247 قصيدة (الحسين، صفحة 103) وشعره هذا ما زال مخطوطا.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أ. **مميزات شعره:**

يمتاز شعر الفقيه بما يلي:

- اقتصر على الأغراض القديمة التي طرقها الشعراء القدماء وأورد معاني شعرهم.
- تأثر الشاعر كثيرا بالشعر الأندلسي واستلهام معانيهم من خلال اطلاعه على أدبهم ، فكانت كتب التاريخ والأدب منهل الشعراء السوسيين ، حيث اطلعوا على كتاب نفح الطيب للمقري وتأثروا في شعرهم بمضامينه وأسلوبه وألفاظه. يقول المختار السوسي: " منهم من كان يحفظ غالب كل مختاراته، وأما استحضار الطرف من محتوياته من القصائد والرسائل والتراجم والنوادر والطرف الأدبية, فهو عند أكابرهم، كالحديث عند البخاري وابن معين" (المختار، سوس العالمة ، صفحة 100).
- غلبة النزعة الدينية وهذا ليس عجيبا فالشاعر من أسرة دينية متصوفة عريقة بالقطر السوسي .

3.الشعر الصوفي عند الشاعر الأديب سيدي الطاهر الإفراني:

نظم الشاعر في النبويات نحو تسعة وتسعين قصيدة، وفي الطريقة الأحمدية تسع قصائد، بلغ عدد أبيات هذه القصائد نحو ألفا وسبعمائة وأربعة وستين بيتا (1764) (المختار، سوس العالمة ، صفحة 104)، أي بمعدل تلث شعره تقريبا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبه للتصوف، ذاق أسرارها وشعت عليه أنوارها حتى وصف بشيخ الطريقة. فالشيخ دافع عن الطريقة ولم يكن متعصبا لمشربه الأحمدي، فالرجل فقيه صوفي سمح لم يغالي في مشربه، وصفه المختار السوسي بأنه لم يكن متعاليا ولا مغاليا، فتصوفه يرادف السلوك الحميد والخلق الحسن، فكان أفسح الناس رقعة وأوسعهم صدرا، وأكثرهم غضا للطرف، وأعلى مسامحة، وديعا هينا لينا، كأنه مخلوق من اللطافة، فلا يخطر منه هذا الخلق السيء ولو توهما (المختار، المعسول، صفحة 49) وقد وصفه المختار السوسي بالصوفي الْمُرَبِّي لما أتاه الله من الأخلاق اللطيفة ومن حسن السمت، ومن ليونة القول ومن سهولة الأكناف، ومن الرجوع إلى الله، والدلالة عليه، والتقدم في الطريقة الأحمدية، فتكونت حوله هالة أخرى أوسع من هالة الأدب. (المختار، المعسول، صفحة 83)

1.3النتاج الفكري الصوفي للفقيه الطاهر الإفراني:

للفقيه رحمه الله آثار صوفية منها:

- **نظم الحكم العطائية:** تعتبر الحكم العطائية لابن عطاء السكندري من أشهر ما وضعه الفكر الصوفي والتي تتحدث عن طبيعة الشخصية الصوفية في الآداب والسلوك والنظرة للكون والحياة، فعمق ما تضمنته من أفكار ومعان بليغة جعلها تحظى باهتمام كبير من قبل العلماء الذين يستشهدون بها ويحفظونها. عددها 264 تداولها العلماء بالتدريس والحفظ، تناولوها أيضا بالشرح والتعليق، وترجمها المستشرقون وأكدوا تأثر بعض رجال التصوف المسيحي بها (أبو الوفا الغنيمي، صفحة 90)

ونظرا لمكانة هذه الحكم العطائية في الفكر الصوفي فقد تم شرحها، ومن أبرز هذه الشروح:

- شرح أحمد زروق الفاسي.
- شرح ابن عباد النفزي الرندي.
- شرح ابن عجيبة المغربي.

عندما نقرأ الحكم العطائية نفهمها ونرتاح لها لأنها تحدد علاقة الانسان بربه. وقد ألف الطاهر الإفراني نظم الحكم العطائية وقدم له بمقدمة نثرية نثر فيها تواضعه الجم في شأن العلماء قائلا:

يقول الفقير المقترف البائس المعترف باسط يد الضراعة لمولاه مغمض عين الالتفات عمن سواه المستعيذ بجلالة قدسه من شر نفسه العبد الضعيف المضطر الطاهر بن محمد بن إبراهيم التَّمَانَرْتِي رحم الله ضعفه وأفاض عليه لطفه وأصلح عمله وسد خلله وأقال زلله بمنه آمين:

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الْحَمدُ وَالشُّكرُ لِمُوتِي الْحِكمِ لِمَن يُخَصُّ بِجَزِيلِ النِّعَمِ
حَمدًا يُوَافِي كُلُّما تَجَدَّدَا مِنْ نِعْمةٍ لَيْسَت تُعَدُّ أَبَدَا
ثُم عَلَى مُحَمّدٍ خَيْرِ نَبِي أَزَكَى الصَّلاةِ وَالسَّلامِ الطَّيبِ

وختامه:

والحَمْد لله الْعظيمِ وَحْدَه حَمْد فَقِيرٍ يَرْتَجِي مَا عِنْدَه
وَصلَواتُهُ بِلَا تَنَاه دَائمَةٍ علَى رَسُول الله
وآلِه وَصَحْبه أَهِلَّة أُفْقِ الْكَمَالِ وَنُجُومِ الْمِلَّةِ
مَا أَشْرَقَتْ قُلُوبُ أَهْلِ الْهِمَّ فَنَطَقَتْ بِمُعْجِزَاتِ الْحِكَمِ

وقد كشف سيدي الطاهر سبب نظمه للحكم العطائية وهو تقريبها لمن يريدون حفظها فقال:

قَصَدْتُ نَفْعَ مَنْ يُرِيدُ حِفْظَهُ مُتَّبِعًا تَرْتِيبَهُ وَلَفْظَهُ

ومن الأمثلة الشاهدة على براعة الرجل في نظم الحكم العطائية ما قاله من نظم الحكمة الأولى: (مِنْ عَلَامَة الْاعْتِمَادِ علَى العَمَل نُقْصَانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ) محافظا على لفظ الحكمة ولم يغير فيها شيئا:

عَلَامَةُ اعْتِمَادِنَا لِلْعَمَلِ نَقْصُ الرَّجَا عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ

وقوله ناظما الحكمة: (الْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ):

الْكَوْنُ كُلُّهُ ظَلَامٌ إِنَّمَا أَنَارَهُ الْحَقُّ الَّذِي مِنْهُ سَمَا

4. خاتمة:

نخلص القول إلى أن منطقة إفران بموقعها الاستراتيجي الذي جعلها مقصد مختلف الشعراء والفقهاء، فأهلها للحضور في الساحة السياسية والعلمية والأدبية على مر العصور.

الحركة الأدبية والإشعاع الثقافي بإفران كان وليد الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة، والأسر العلمية المتواجدة بترابها وما تستقبله من وفود وما تختزنه من ذخائر ونفائس، وكذا المدارس العلمية العتيقة ووفرة الأساتذة وطلبة العلم من كل صوب وحدب ثم تنوع البرامج والأنشطة التربوية وكذا المحيط بالنظر لتواجد المدرسة في مرتفع بمحاذاة الوادي الذي سماه المختار السوسي بوادي الأدباء.كما أن الحركات الصوفية الناصرية والدرقاوية والتيجانية والسلفية لها دورها في بث الحياة وتنشيط حركة التأليف.

ولقد ازدهر الأدب الإفراني مع الأسرة التمانارتية في عهد الطاهر الإفراني وتلاميذه وتلامذة ابنه محمد، ثم عاش فترة فتور أو ذهول في الفترة الاستعمارية وبعيد الاستقلال، ثم انبعث من جديد مع من تبقوا من تلامذة محمد بن الطاهر كأخيه البشير بن الطاهر والحاج المحمد الناصري والحاج الحسين البكري وغيرهم، هذا الازدهار نتج عنه إشعاع متعدد المظاهر، وعلا شأن الإفرانيين في جل مناطق سوس والصحراء وكذا الحواضر المغربية.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

5. قائمة المراجع:

1- أبو الصواب إبراهيم. *واحات وادنون و العمق التاريخي* .

2- أفا الحسين. *الشعر العربي في سوس بين الاتباع و الإبداع*. كلية الاداب و العلوم الإنسانية أكادير: المغرب.

3- التفتازاني أبو الوفا الغنيمي. *ابن عطاء الإسكندري وتصوه*.

4- الرضي اليزيد. (1992). *داود الرسموكي وشعره*. منشورات جمعية إيليغ للتنمية و التعاون .

5- السعيدي المهدي. *المدارس العتيقة وإشعاعها العلمي والأدبي بالمغرب -المدرسة الإلغية نموذجا*. وزارة الأوقاف.

6- السوسي المختار. *المعسول*.

7- السوسي المختار. *سوس العالمة* .

8- الكوسالي السملالي الحسن. *راجع قصيدة في مدح شيخ الطاهر الإفراني*.

9- اليوسفي علي. (2002). *الحركة الأدبية في منطقة إفران الأطلس الصغيربين 1280هو1417هـ*. أطروحة دكتوراه في اللغة العربية بكلية اللغة العربية : مراكش.

10- محمد المختار السوسي سوس. *رجالات العلم العربي في سوس* .

11- محمد أمنون. (2002). *كشف خبايا و أسرار الجنوب*.

12- والإبداع الشعري التعليم العتيق. (2020). *قصيدة مدح للأديب الحسن الكوسالي السملالي في مدح شيخ الطاهر الإفراني* (المجلد 10). منشورات آفلو للبحث و التوثيق: آفلو.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)